

جدل الدولة، الدين والأخلاق

الدكتورة: مقدم مختارية

جامعة معسكر

ملخص:

إذا كان اللوغوس اليوناني منظما للكون فان اللوغوس الغربي صانع أخلاق العالم؛ صانع اخترق نظم الأخلاق الإسلامية وأسسها على نحو غربي بامتياز. جعل منها صورة بلا معنى، ظاهرا بلا باطن، حياة بلا روح. فهل من داع يحدونا إلى دق ناقوس الخطر على موت الأخلاق الإسلامية، أم أن اللوغوس الغربي قضى بصنعبته على آمال القيم الإسلامية في أن تصبح قيما عالميا؟
الكلمات المفتاحية: إسلام؛ دين؛ دولة، أخلاق؛ عوالة؛ غرب؛ حوار؛ جدل.

Abstract :

If the Greek Logos is an organization of the universe, the Western Logos is the maker of the ethics of the world; a maker who penetrated the systems of Islamic morality and founded it in a distinctly Western way. He made a meaningless picture, a manifestation without solitude, a life without spirit. Does it make sense for us to raise the alarm over the death of Islamic morality, or does the Western Logos dictate the hopes of Islamic values to become universal values?

Keywords: Islam ; Religion ; State ; Ethics ; Globalization ; West ; Dialogue, Controversy.

يخيل إلي أن أطرح الموضوع على نحو استفهامي يدعوا إلى رؤية جديدة لمفهوم "العلمنة" فصل الدين عن الدولة. دعوات كثيرة ومطالب لم يجف حبرها وهي تنادي لتحقيق هذا الحلم.. حلم تحقق على أرض الواقع في جميع مناحي الحياة العربية الفكرية، الاقتصادية، السياسية وغيرها من المجالات؛ دون تنظير أو تصريح أو تبين للقضية.

شاء للحلم أن يتحقق عبر الزمن بفضل "رقة جناح الفراشة" أولاً؛ من خلال ظلال الإعلام والفن السينمائي والموضة والرياضة...كيف ذلك؟ الإعلام المموه للحقائق؛ السينما المعين الثقافي للأفراد؛ الموضة التي خلعت بعالميتها وتجدها الدائم حياء اللباس الإسلامي للرجل والمرأة على حد سواء باسم الحرية الفردية. وثانياً بسبب الخلفيات الأيديولوجية والمصالح الخاصة لرجال الدين والجمعيات الدينية التي أغفلت بل تناست دورها في تفعيل وبعث القيم الإسلامية على المستويات المذكورة آنفاً. مع هذا كله نتساءل: هل ما يزال للدين من قوة مؤثرة في حياتنا المعاصرة؟

تكشف لنا المساجلة القائمة بين ما هو ديني وما هو سياسي عن انفصال لا اتصال بين الجانبين أو يمكن القول؛ غياب تام للأثر الديني لا على المستوى السياسي فقط بل على جميع المستويات: الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية...عقم السجل السياسي الديني في البلدان الإسلامية فسح المجال واسعاً للتأثير السلبي للعولمة وفتكها بمقومات الدين وأركانه الأمر الذي قوض دور القيم الروحية والأخلاقية في حياة المسلمين. وفي هذا الشأن يقول محمد عابد الجابري: "والسؤال: هل الإسلام دين أو دولة؟ سؤال لم يسبق أن طرح قط في الفكر الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى أوائل القرن الماضي، وإنما طرح ابتداء من منتصف القرن الماضي بمضمون لا ينتهي إلى التراث الإسلامي مضمون نهضوي يجد أصوله وفصوله في النموذج الحضاري الأوربي الذي كان العرب ومازالوا يطمحون إلى تحقيقه في أوطانهم، وبالأخص ما يتعلق منه بالتقدم والنهضة"¹. ما من تقدم أو نهضة يمكن استيرادها جاهزة دون اجتهاد وابتداع، فقط بمجرد إحضار نموذج فكري أو تربوي أو تعليمي..لأن الأمم تنهض بسواعد وعقول أبنائها لا أعدائها. ما يعني أن الدعوى إلى فتح السجل الناري بين الدين والدولة دعوى مفتعلة ليس القصد منها التغيير بل الدخول في دوامة العبث والزيف الوجودي ما سهل عملية انحلال القيم الإسلامية وانبثاق القيم الدخيلة على أحوال وعلاقات أفراد المجتمع الإسلامي.

إن الجدل النظري العقيم بين الدين والدولة مد يد العون للعولمة الثقافية أن تحل محل الثقافة الإسلامية مفتعلاً محنة أخلاقية وتراجع عقيدي لا نظير له منذ

¹ محمد عابد الجابري، وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2004، ص80.

ظهور الإسلام. احتدم الصراع بين الساسة وأصحاب الفكر الديني على من يسوس من؟ هل السياسة تسيطر على الدين أم أن الدين يسوس السياسة؟ جدل نظري وصراع دموي - مثال ذلك ما حدث زمن التسعينات في الجزائر- وحقيقة الأمر؛ أن كل شيء مصطنع ومفبرك الأمر الذي يدفعنا إلى تأييد الحكم الذي أصدره برهان غليون في حق المدعين للإسلام بقوله: "هم الإسلاميين ليس نشر رؤية جديدة للإيمان ولكن استخدام الدين للوصول إلى السلطة وهو مضمون العقيدة السياسية لا الدينية"¹ ومثاله في التاريخ الإسلامي تراجع "محنة خلق القرآن" على يد المتوكل؛ مثال ساطع على توظيف السلطة السياسية للخطاب الديني لمآرب سياسية خالصة. إن الإسلام لحظة إعلانه عن نفسه دعا إلى التوحيد الصحيح المؤسس على النظر السليم ولم يطالب بتولي زعامة قريش ولا العرب؛ ما يعني أنه نشر تعاليمه وبعث قيمه نظرياً - من خلال الاعتقاد الجازم بها - وفعلياً بالامتثال لهذه التعاليم وتجسيدها في أخلاقياته؛ أي أن المعرفة بالدين أسبق من الحكم بالدين. فهل من إحساس بغياب الدين وتجلياته الفعلية والصادقة - غير الموظفة توظيفاً أيديولوجياً إنما مقصودة قصداً خالصاً لروح الدين ووجوده- عدا وجوده كمظاهر وظواهر صورية فارغة؟ يذكر ماركس "أن للدين بعداً أيديولوجياً يخدم مصالح الفئات الحاكمة، ويبرر سلوكها على حساب الآخرين"².

هل آن الأوان لموت الدين الإسلامي في قلوب المؤمنين به؟ يلاحظ عموماً، أن سطوة الدين في الحياة الاجتماعية آخذة بالتناقص والانكماش مع أن البعض يمكن له الاحتجاج على الأمر بحجة رفع آذان الصلاة على مسامع جميع المسلمين داخل المجتمع، والتحاق جمع منهم لأداء الفريضة؛ ضف إلى ذلك صوم شهر رمضان والحج الذي يعج بازدهام الأمم المتوافدة إليه من كل حذب وصوب ...

على الرغم مما تقدم ذكره، إلا أن أداء هذه الفروض لا يعني بأي حال من الأحوال أن الورع الديني كامن في النفوس وأن التوحيد عاقد على القلوب. لأن هذه

¹ برهان غليون، العرب وتحولات العالم من سقوط جدار برلين إلى سقوط بغداد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2005، ص240.

² أنتوني غدنز، علم الاجتماع، تر: فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط4، د(س)، ص585.

الشعائر وغيرها أوضحت صوراً لمظاهر تتكرر حسب المواقف الزمنية المرتبطة بها، وحل الرياء والتفاخر في أدائها محل التطهر بها.

من الأهمية بمكان أن أنه إلى أني لا أتناول بالدراسة الخطاب الديني الذي أضحي هو الآخر مظهراً من المظاهر الصورية غير المجدية ؛ بل أقصد تراجع وانحلال القيم المعنوية والروحية معرفية كانت أو أخلاقية . وفي خضم هذا الاضطراب الوجودي للفرد المسلم تطرح مسألة الهوية : فهل تنسب للإسلام كدين أم كمظهر؟ " تقدم الهوية ضمناً كمعطى محدد بالإسلام، وتكمن علة وجود العلاقات الصدامية مع الغرب، في التميز والاختلاف عنه وهو ما يعضد هذه الهوية"¹. هوية تنتهي لدين يزخر بالقيم الإنسانية النبيلة تعاني محنة أخلاقية مستأصلة وتردي عقيدي أضعف مما كانت عليه عقائد الناس زمن الاستعمار -عقائد حملت لواء الحرية ونبذت سلطة الاستعباد السياسي والفكري- في المقابل يوجد في الوقت الراهن ترحيب بجميع أنواع الاستعباد الفكري الديني السياسي الاقتصادي الثقافي .. والأمة الإسلامية تتعرض لسلب و"محو قيمها الروحية بنشر الفساد بين أبنائها، وقد دخل هذا السلب الثاني طوراً خطيراً لم يسبق له نظير"². فأين هم علماء الدين والمؤسسات الدينية الذين يقومون ما اعوج من الأخلاق ويصححون ما فسد من العقيدة ويدروون ما ظهر من الفتن، لا أن ينشغلوا فقط برصد هلال رمضان الذي -هو الآخر- لا يوجد عليه اتفاق.

إن سؤال الأخلاق يقودنا إلى سؤال الإيمان؛ لأن "المسلم إنما هو هذا الإنسان الذي يجزم بوجود الألوهية ؛ وذلك أن نظره المملوكي لا ينفك يطلبها في كل شيء يعرض له أو يحيط به مهما دق شأنه أو جل؛ وهذا يعني أن الظواهر كلها ترتقي عنده إلى رتبة الآيات المختلفة كما يعني أن اختلاف هذه الآيات الذي لا نهاية له يجعله يعتقد على وجه اليقين أن لهذه الآيات إلهاً أوجدها وأمدّها"³.

فهل هذا الإيمان راسخ أم مزعزع؟ طرح السؤال لاعتبار أن إيمان التقليد تجتثه العواصف بيسر وسهولة على عكس الإيمان الصحيح القائم على المعرفة والأدلة؛

¹ بوبكر بوخريسة، الدولة والمجتمع من مشروع الوحدة المغاربية إلى الدولة القطرية، دار هومه، الجزائر، د(ط)، 2012، ص340.

² طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005، ص16.

³ المصدر نفسه، ص20.

لهذه الغاية كانت أول قاعدة شرعية تجب على المكلف: معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل على الله تعالى وعلى رسله. فما أحوجنا إلى العمل على بعث التوحيد الصحيح في هذا "الزمان المتعولم" على حد تعبير طه عبد الرحمن. فالإسلام كدين "يحدد بقوة الهوية والانتماء للأمة، المجتمع والوطن. كما يشكل زيادة على ذلك، دعامة للتمثلات التي من خلالها يرى المجتمع ذاته ويحدد هويته"¹. فهل حقيقة يتغلغل الدين في حياة الناس اليومية الراهنة فيمثل المرجعية التي ينطلقون منها ويعتدون بها في تمثيل وتحديد هوياتهم؟

إذا كان الحال كذلك فمعنى هذا أن المسلمين انتصروا على العولمة بوجود ملاء ديني قوي لا يمكن لأي مخطط فكري شامل أن يزعه؛ "كل شيء ينطلق من المبدأ الأساسي في الإسلام: التوحيد، أي الاعتراف لا بوحدانية الله فحسب، بل بوحدانية كل واقع بما فيه وحدانية الجماعة البشرية الشاملة، يقول الأفغاني: إن ميزة الإسلام هي أنه يضفي هدفا على كل عمل في عالم تلجئه عقلانية الغرب إلى اللا معنى لعبادته للوسائل"²، إنها عولمة إسلامية تفتقد من يتبناها.

إلا أن ما نلاحظه في حياتنا اليومية من سلوكيات وأخلاقيات غريبة عن الإسلام لا يدل بأي وجه من الوجوه على أنه يوجد أثر ديني قيمي تستقى منه التمثلات التي تحدد الجوهر الوجودي الآن، لا يوجد أثر ينازع المرجعية الإعلامية والسينمائية الغربية؛ إلى درجة أضحت معها سلوكيات وأخلاقيات المسلم المعاصر تخالف حقيقة ما يدعو إليه دينه وتطابق دعاوى الغرب وما يريده. وحاصل ذلك أن للعولمة "وسائل تأثير فعالة ممزوجة بصورة جمالية أخاذة تجعل من المقاومة الواعية أمرا متعذرا نسبيا. فما نعايشه هو حلول الزمن الفعلي محل المكان التقليدي، ولغة الإشارة الضوئية محل اللغة الطبيعية، وغلبة لغة السلعة والقيمة المادية على غيرها من القيم"³. فانعكس هذا التأثير على الجواهر القيمية والمعنوية تحديدا.

إن العولمة تريد أن يكون "نموذج الثقافة الغربية معياريا في نشر القيم والطروحات التي تركز اقتصاد السوق وكذا الديمقراطية الليبرالية. وهكذا جاءت

¹ بوبكر بوخريسة، الدولة والمجتمع من مشروع الدولة المغربية إلى الدولة القطرية، ص 340.

² روجي غارودي، نحو حرب دينية؟ جدل العصر، دار الفارابي، بيروت، ط3، 2001، ص 37.

³ عبد الرزاق بلعقروز، العولمة في الخطاب الفلسفي المعاصر بين النقد الأخلاقي وتفكيك متتالية الترشيد العلماني، سلسلة أعمال الملتقيات، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة 2010، جامعة قسنطينة، الجزائر، ص 31.

محاولات تنميط قطاعات الثقافة كالفلسفة والفن والدين والأدب بحيث عدت معايير لقبول الثقافات إن كانت على شاكلة الثقافة الغربية تمهيدا لتوحيد الثقافة بناء على النموذج الغربي حتى وإن أظهرت بعض دوائر العولمة أحيانا مرونة تشير معها إلى نسبية ثقافية أو انفتاح على الثقافات الأخرى وتسامح اتجاه ثقافة ما من الثقافات المحلية؛ غير أن النموذج الأسى يظل على الدوام الثقافة الغربية¹. إنها الثقافة الغربية التي كرستها تاريخيا النزعة الاستعمارية الغربية إذ "ظلت تعد نفسها مركزا للعالم والخالقة الوحيدة للقيم، وشاءت منذ نهاية القرن التاسع عشر أن تفرض على العالم ثقافتها التقنية والتجارية التي سمتها الحداثة"². ورغبة في تحقيق هذا الأمل الذي أصبح حقيقة معاشة "أنترع الشرق من بيئته وسياقه وأنتج طبقا لمواصفات العقل الاستشراقي . وبعبارة أخرى فان الشرق الاستشراقي يكاد يكون منبت الصلة عن حقيقته التاريخية والثقافية. فقد أعيد إنتاجه ليوافق إستراتيجية المركز الغربي فاكتسب أهميته التاريخية لأنه تجل من تجليات العقل الغربي، وممارسة من ممارساته الخاصة"³.

إنه تجل في هيئة سلعة مصنعة من طرف العقل الغربي، تجل مسلوب الإرادة والفكر إذ أنه "بعد أن استولت التقنيات الصناعية على المواد الأولية وعلى البضائع الاستهلاكية المادية صار لزاما عليها أن تستولي على الأحلام، وعلى قلوب البشر: والصحافة الكبرى والراديو والسينما لتكشف لنا عن مردودية الحلم الهائلة، الحلم كمادة أولية حرة ومرنة كالريح يكفي أن نشكلها، وأن نقننها لكي تستجيب لنماذج الوهمي الأساسية"⁴. إنه الدور السحري الذي تلعبه السينما ويتفنن في إبداعه نجوم السينما؛ نجوم يحذو سبيلهم الشباب مقلدين سلوكياتهم، ثيابهم وقصات شعرهم...إنهم يصنعون الحلم لمن لا حلم له ولا أمل ...

¹ محمد جديدي، هل الخوف من العولمة مبرر؟ سلسلة أعمال الملتقيات العولمة والهوية الثقافية،

مخير علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة 2010، جامعة قسنطينة، الجزائر، ص 60، 61.

² روجي غارودي، نحو حرب دينية؟ ص 37.

³ عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت،

ط1، 2010، ص 176.

⁴ إدغار موران، نجوم السينما، تر:إبراهيم العريس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1،

2012، ص 121.

إن المجتمع الأوروبي انتصر للعلم وأزاح الدين من طريق لأسباب عديدة-لا مجال لذكرها- فانه من الغرابة بمكان أن ينسلخ المجتمع الإسلامي بلبه عن الدين وقيمه العليا لا انتصارا للعلم والتقنية ولا استرشادا بالسياسة الراشدة بل هربا وعزوبا من الضغط النفسي للضمير الديني لصالح الجهل والزيغ الملقى بظلاله على جميع مستويات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية ..حتى الخطابات الدينية أضحت مزيفة بما تحويه من دعاوى عابثة بأحلام الناس وآلامهم.

*قائمة المراجع:

- 01- أنتوني غدنز، علم الاجتماع، تر: فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط4، د(س).
- 02- بوبكر بوخريسة، الدولة والمجتمع من مشروع الوحدة المغربية إلى الدولة القطرية، دار هومه، الجزائر، د(ط)، 2012 .
- 03- طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005.
- 04- حمد عابد الجابري، وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2004.
- 05- عبد الرزاق بلعقروز، العولمة في الخطاب الفلسفي المعاصر بين النقد الأخلاقي وتفكيك متتالية الترشيد العلماني، سلسلة أعمال الملتقيات، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة 2010، جامعة قسنطينة، الجزائر.
- 06- غليون، العرب وتحولات العالم من سقوط جدار برلين إلى سقوط بغداد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2005.
- 07- روجي غارودي، نحو حرب دينية؟ جدل العصر، دار الفارابي، بيروت، ط2001، ص37.
- 08- محمد جديدي، هل الخوف من العولمة مبرر؟ سلسلة أعمال الملتقيات العولمة والهوية الثقافية، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة 2010، جامعة قسنطينة، الجزائر، ص60، 61.
- 09- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص176.
- 10- إدغار موران، نجوم السينما، تر: إبراهيم العريس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2012، ص121.